ملامح الحكمة وأساليبها في نهج الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)

د.جنان محمد مهدي العقيدي
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات

الخلاصة

الحكمة هي الفصل والتمييز بين الإصابة في القول والفعل وعدمها وفق إدراك يحيط بفنون العلوم التي توصل إلى الفهم الدقيق للأمور ووضعها في نصابها. وقد حاولت في هذا البحث تلمس ملامح الحكمة عند الإمام الحسن العسكري (سلام الله عليه) وبيان أساليبه وأفعاله الدالة على وجوه الحكمة المتنوعة التي اقتضتها طبيعة ما أحاط به من أفعال وسلوك يتوجب معه تباين أساليب التعامل مع المواقف سواء أكانت آنية أم مستقبلية .

لذا اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على ثلاثة مباحث ، كان المبحث الأول مختصاً بلفظة الحكمة ودلالتها في اللغة والسياق القرآني، في حين خصص المبحث الثاني لأسلوب الإمام (عليه السلام) وحكمته في المواقف التي اقتضت معها تنوع أساليب التعامل مثل أسلوب الكتمان وأسلوب الإشارة...، أما الثالث فقد اختص للحديث عن حكمة الإمام (عليه السلام) ونظرته الاستشرافية للمستقبل ومنهجه في التمهيد للغيبة ، مثل التوقيع على المكاتبات وإرسالها بسرية والاحتجاب عن الأنظار والوكلاء الدلائل ..

وختم البحث بأهم النتائج التي تم التوصل اليها.

Features of wisdom and methods in the approach of Imam Hassan al-Askari (Peace Be upon Him)

Dr. Jinan Mohammad Mahdi Al- Aqidi
University of Baghdad - College of Education for Women

Abstract

Wisdom is the separation and distinction between aim in the word and work and the lack thereof in accordance with the knowledge surrounding the arts of science, which reached a thorough understanding of things and put them in the quorum. In this research, I have tried to discern the characteristics of the wisdom of Imam Hassan al-Askari (peace be upon him) and to explain his methods and actions which are indicative of the various facets of wisdom required by the nature of the actions and behavior that he has to deal with. Or future mother.

The second topic was devoted to the style of Imam (p) and his wisdom in the situations that necessitated the diversity of methods of dealing such as the method of concealment and the method of reference. .. And the third has been specific to talk about the wisdom of Imam (p) and his outlook for the future outlook and methodology in the prelude to the absence, such as signing the correspondence and send confidential and the absence of sight and agents evidence

The research concludes with the most important findings.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي نوّر قلوب خلقه بالبيّنات والهدى، والصلاة والسلام على خير الورى محمد المصطفى، وعلى آله المهتدين بهديه ونهجه أولي النهى ومن تبعهم بإحسان واهتدى ..

أما بعد :

فإن الحكمة نور إلهي يودعه رب العزة في نموذج فريد يصعب تقنين عطاءاته ومواقفه وتوجهاته وسلوكه ، فالحكيم رجل يرى ما قبل اللحظة الراهنة ويستشرف ما بعدها ، فهو عالم بما لا يعلمه الآخرون، والحكمة من الخير الذي يختص به الرحمن الخواص من عباده مصداقاً لقوله تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) [البقرة ٢٦٩]، إذ يعرف معها البعد الاستشرافي المستقبلي للمسائل والأمور. لقد تجلت صفة الحكمة في شخصية عرفت الغاية من خلق المخلوقات وإيجادها وهي المعرفة الحقة للعبادة والإقرار بالربوبية والعمل على وفق منهج الدين وجعله الوسيلة للإصابة في القول

والفعل وصولاً للكمالات الروحية ، تلك هي شخصية الإمام الحسن العسكري (ع) ، لذا حاولت في هذا البحث تلمس ملامح الحكمة وبيان أساليب الإمام (سلام الله عليه) وأفعاله الدالة على وجوه الحكمة المتنوعة التي اقتضتها طبيعة ما أحاط به من أفعال وسلوك يتوجب معه تباين أساليب التعامل مع المواقف سواء أكانت آنية أم مستقبلية .
لذا اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على ثلاثة مباحث ، فكان المبحث الأول مختصاً بلفظة الحكمة ودلالتها في اللغة والسياق القرآني، في حين خصص المبحث الثاني لأسلوب الإمام (عليه السلام) وحكمته في التعامل مع المواقف التي اقتضت معها تنوع أساليب التعامل مثل أسلوب الكتمان وأسلوب الإشارة ، أما الثالث فقد اختص للحديث عن حكمة الإمام (عليه السلام) ونظرته الاستشرافية للمستقبل ومنهجيته في التمهيد للغيبة ، مثل التوقيع على المكاتبات وإرسالها بسرية والاحتجاب عن الأنظار والوكلاء الدلائل .
وختم البحث بخاتمة لأهم النتائج التي تم التوصل إليها .

المبحث الأول : الحكمة ودلالاتها بين اللغة والسياق القرآني

تشكل المفردة اللبنة الأساسية في هندسة الجمل والتراكيب الكلامية،فضلا عن أنها (إحدى الوحدات الأساسية لعلم الدلالة)[١]،وقد عدّت المفردة أهم موضوعات علم اللغة في العصر الحديث فأفرد لها ما يعرف اليوم " بعلم المفردات "الذي تناولها بالبحث والدراسة على وفق مستويات اللغة الصرفية والتركيبية والدلالية، وتأتي أهميتها من كونها أهم عناصر التواصل والاتصال اللفظية بين المخاطَب والمخاطِب .
فالمفردة في الدرس اللساني الحديث تقابل مصطلح" العلامة اللسانية "،والعلامة اللسانية ((جوهر مكوَّن من الدال والمدلول))[٢] فثمة مَنْ يرى أن الدال يمثل الصورة الصوتية أما المدلول فهو المفهوم،وهما في الواقع وجهان لعملة واحدة، إذ إن الدال يعدّ الترجمة الصوتية للمقابل الذهني وهو المدلول، فالكلمة عند دي سوسير عبارة عن علامة لغوية ودلالتها نتاج العلاقة المتبادلة بين الكلمة والفكرة، وتبعا لذلك فإن العلاقة بين الدال والمدلول تكون اعتباطية، فالدال يتطلب المدلول في ذهن المتلقي كما أن المدلول هو الآخر يتطلب الدال، ويخضع ذلك كله إلى الاتفاق والتواضع الاجتماعي .
إن المتأمل في اللغة العربية يجد أن لألفاظها دلالات مختلفة ومتنوعة تنبع من أصل لغوي واحد باختلاف اشتقاق ذلك الأصل وهو ما يدلّ على ثراء اللغة واتساع دلالاتها، ويكون هذا الأمر أكثر وضوحاً وبياناً في الكلمة الواحدة نفسها ، إذ تختلف دلالاتها بحسب سياق الكلام الذي ترد فيه، لذا يتوجب لمن يريد أن يعرف دلالة الكلمة العودة إلى أصلها الاشتقاقي في المعجمات اللغوية لمعرفة الدلالة الأصلية لها .
لذا لابد لنا في البدء أن نعرّف بلفظة الحكمة في مظانها اللغوية الأولى، فلو عدنا إلى أصل لفظة الحكمة لوجدنا أن لها أكثر من معنى منها : العدل ، العلم ، الحلم ، النبوة ، القرآن ، الإنجيل [٣]، وقد أورد ابن فارس أن ((الحاء والميم والكاف أصل واحد ، وهو المنْع . وأول ذلك الحُكم، وهو المنع من الظُّلم . وسميت حَكَمة الدابة لأنها تمنعها يقال حَكَمْت الدابة وأحكمتها . ويقال:حكمت السَّفيه وأحكمته، إذا أخذتَ على يديه .
قال جرير :
أبَني حذيفة أحْكِموا سُفهاءَكم إني أخاف عليكم أن أغضبا
والحِكمة هذا قياسها ، لأنها تمنع من الجهل . وتقول : حكّمت فلاناً تحكيماً منعته عما يريد. وحُكِّم فلان في كذا، إذا جُعل أمره إليه. والمحكَّم: المجّرب المنسوب إلى الحكمة .. وفي الحديث : ((إن الجنة للمحكَّمين وهو قوم حُكِّموا مخيَّرين بين القتل والثبات على الإسلام وبين الكفر فاختاروا الثبات على الإسلام مع القتل ، فسُّموا المحكمين)) .[٤]
أما الفيومي فقد ذكر أن ((معنى الحكم القضاء وأصله المنع يقال حكمت عليه بكذا إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك وحكمت بين القوم فصلت بينهم فأنا حاكم وحَكَم بفتحتين والجمع حكام ويجوز بالواو والنون والحكمة وزان قصبة للدابة سميت بذلك لأنها تذلل لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه ومنه اشتقاق الحكمة لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال وحكمت الرجل بالتشديد فوّضت الحكم إليه وتحكم في كذا فعل ما رآه وأحكمت الشيء بالألف أتقنته فاستحكم هو صار كذلك)) [٥].
وقد أسهب الزبيدي في تفصيل مادة (حكم)[٦] وذلك حين قال: ((الحُكم، بالضم: القضاء في الشيء بأنه كذا أو ليس بكذا سواءٌ لزم ذلك غيره أم لا، هذا قول أهل اللغة، وخصّص بعضهم فقال: القضاء بالعدل ... والحاكم مُنَفذ الحُكم بين الناس، قال الأصمعي: وأصلُ الحُكُومة : ردُّ الرجل عن الظلم وإنما سُمي الحاكم بين الناس حاكماً لأنه يمنع الظالم من الظلم .... وأحكمه: منعه مما يريد)) .[٧]
يتبين مما ورد في المعجمات اللغوية بأن " الحكمة " لا تخرج في دلالتها اللغوية عن المنع باختلاف تصاريفها. وقد عرّفت الحِكْمة : بأنها العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاها [٨]، وعرّفها الجرجاني بأنها((علم يبحث فيه حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية فهي علم نظري غير آلي)) [٩]، وهي : ((معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم)) [١٠].
أما في السياق القرآني فنجد أن لفظة الحكمة وردت ٢٠ مرة في ١٢ سورة [١١]، اختلفت فيها دلالتها وتنوعت بحسب سياق الآية ، وقد وردت الحكمة في القرآن الكريم على ستة أوجه دلالية هي [١٢]:
١- الموعظة، ورد هذا المعنى في (سورة القمر/ ٥) وذلك في قوله تعالى: { حكمة بالغة فما تغن النذر}.

٢- السُنّـة، كما في (سورة البقرة /١٥١) في قوله تعالى:{ يتلوا عليهم آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة }وقد وردت هذه الدلالة في تفسير ابن كثير حين قال:(("والحكمة" يعني: السنة، قاله الحسن ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وأبو مالك ، وغيرهم)) .[١٣]
٣- الفهم ، ورد هذا المعنى في سورة (لقمان / ١٢) في قوله تعالى : { ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله } ذكر ابن كثير ذلك بقوله : ((أي الفهم والعلم والتعبير)) [١٤].
٤- النبوة ، جاء هذا المعنى في سورة (ص / ٢٠) بقوله تعالى:{ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب } ذكر القرطبي في تفسيره للحكمة في هذه الآية بأنها " النبوة " ، مشيراً إلى أن هذا التفسير قال به السدي [١٥]، وعلى هذا فإن الحكمة أعم من النبوة.
٥- القرآن، وكان هذا الوجه من المعنى قد ورد في سورة (النحل / ١٢٥) في قوله تعالى: { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } .
٦- علوم القرآن، وقد ورد هذا الوجه الدلالي في سورة (البقرة / ٢٦٩) في قوله تعالى: { يؤتي الحكمة من يشاء } وكان ابن كثير قد نقل عن ابن عباس قوله في تفسير الحكمة هنا أنها المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه ونحو ذلك .

عند إنعام النظر في الآيات التي وردت فيها لفظة الحكمة نجد أنها جاءت على نوعين، فهي إما مفردة أو مقرونة بلفظة " الكتاب " [١٦] فمما ورد مفرداً من لفظة الحكمة كما في قوله تعالى : { يؤتي الحكمة من يشاء } [١٧]، وقوله تعالى : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } [١٨] وقوله تعالى: { ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله}[١٩]، وقد اختلفت دلالة الحكمة وفسرت بحسب سياق الآيات القرآنية كما تقدم .

أما ما جاء مقروناً بلفظة الكتاب فقد فسرت بأنها " السنة " من أقوال النبي (ص) وأفعاله وتقريراته وسيرته[٢٠] وهي في قوله تعالى: { ربنا وابعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} [٢١]، وقوله تعالى: { يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة}[٢٢]، وقوله تعالى: { يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة }[٢٣].

والحكمة نوعان حكمة علمية نظرية وهي الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباطاتها ومسبباتها، وحكمة عملية وهي وضع الأشياء في مواضعها ، ومرجع الحكمة العلمية هو الإدراك والعلم ، أما العملية فهو العدل والصواب .[٢٤]

من كل ما تقدم يمكن القول بأن الحكمة هي الفصل والتمييز بين الإصابة في القول والفعل وعدمها على وفق إدراك يحيط بفنون العلوم التي توصل إلى الفهم الدقيق للأمور ووضعها في نصابها.

المبحث الثاني : أسلوب الإمام وحكمته في التعامل مع المواقف

تتباين المواقف والظروف التي تواجه الإنسان وتبعا لها يتباين أسلوب تعامله معها، ولعل الظروف الخارجية المحيطة بتنوع اتجاهاتها ومسمياتها لها أكبر الأثر في توجيه سلوك النفس البشرية التي تتكيف تبعاً لتلك الأحوال والظروف، والمقصود هنا النفس الحكيمة التي تعقل ثم تتعامل على وفقاً لمنطق الحكمة الذي يقتضي تمييز الصواب من الخطأ في التصرف والعمل بما يتناسب والموقف الآني بتدبّر وروية لا تثير معها الريب والشك ، بل بهدوء يدلّ على الكياسة والمنطقية في ديناميكية حركة الفعل الصادر .

فالمتأمل في الظروف التي واجهها الإمام عليه السلام يجد أن ظلالها انعكست على حركة الإمام وسلوكه العملي، إذ كان أشبه بمن هو تحت الإقامة الجبرية حين يكون خارج السجن والمراقبة القسرية في حالة السجن ، فكل حركاته وسكناته مرصودة وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الحذر والخوف والتوجس من أفعاله التي يمكن أن تقلب الموازين على الحكام الجائرين .

لذا نجد أن الإمام عليه السلام اتبع أساليب عديدة في التعامل مع الأمور والظروف تنم عن حكمة موروثة من منبع ثــرّ يفيض بتلك الصفة ذلك المنبع هو الحكمة النبوية التي تنهل من منهل سلسبيل هو الحكمة الإلهية المتجسدة بكتاب الله عز وجل القرآن الكريم ، وهو ما تخلّق به نبي الرحمة ومنبع الحكمة إذ كان خلقه القرآن، فالسلسلة ابتدأت برسول الله (ص) وامتد تأثيرها وبان أثرها في الأئمة المعصومين من بعده .

لقد كان الإمام الحسن العسكري واحداً من أئمة الهدى الذين تجسدت فيهم فيوضات الحكمة النبوية، التي بان أثرها في رسم السلوك القائم على التدبّر الحكيم لعواقب الأمور ، فكانت مراعاة الإمام سلام الله عليه شاملة فلم يترك جانباً دون آخر من المواقف التي واجهها بل نجد أن التنوع في التعامل مع المواقف كان يتناسب وتنوع مستويات تلك المواقف والاتجاهات،فمنها السياسي والفكري والعلمي والاجتماعي بأسلوب صادر عن عقلية وذهنية متفتحة قادرة على تحليل الأمور ومعرفة ظلال عواقبها .

وتبعاً لذلك فقد تنوعت أساليب الحسن العسكري عليه السلام في التعامل مع الأمور فمنها أسلوب الحوار والجدل الموضوعي وأسلوب الكتمان والإشارة ، وهي أساليب أكسبت سياسته وقيادته صفة الحكمة فاستطاع أن يجمع الكلمة ويوحد الأمة على نهج رسالي توجيهي إرشادي هدفه صلاح وتقويم المجتمع الذي عبثت به سياسة الدولة العباسية الظالمة التي كانت تهدف إلى تهميش وصهر وإذابة فكر أهل البيت عليهم السلام ، فعلى الرغم من معاملة السلطة الحاكمة السيئة للإمام تارة بالمداهنة والتظاهر بتقريبه وإكرامه وتارة بالمراقبة الشديدة وتارة أخرى بالسجن ، لذا كان على الإمام عليه السلام

التعامل بحذر ودقة ، فكان أسلوبه في معاملاته بمثابة منهاج سلوكي يسير عليه المؤمنون ممن يتبع منهج أهل البيت سلام الله عليهم .

فمن أساليب الحكمة عند الإمام الحسن العسكري (ع) أسلوب الحوار والجدل الموضوعي ويكتسب الحوار منهجيته المنطقية إذا كان مشفوعاً بالدليل والحجة ، لذا يكون الحوار العقلي الذي يعتمد المنطق والحجة أنجح أسلوب يسلكه المحاور ليقنع به من يحاوره ويؤثر فيه ؛ ذلك لأن الإنسان السوي العاقل يستعمل عقله لإدراك مسألة ما فيحتاج إلى إعمال العقل للتأمل والتفكير الذي يصل به بالنتيجة إلى الاقتناع والقبول استناداً إلى أدلة منطقية يتقبّلها العقل .

لقد تمثل هذا الأسلوب في حكمته سلام الله عليه حين ردّ ادعاء أهل الشغب والجدل الذين كانوا يلقون حبال الشك في طريق المسلمين بجدالهم المسلمين في قولهم بالصلاة : (اهدنا الصراط المستقيم) حين قالوا : ((أو لستم فيه ؟ فما معنى هذه الدعوة ؟ أو أنكم متنكبون عنه فتدعون ليهديكم إليه ؟ ففسر الإمام الآية قاطعاً لشغبهم فقال : أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمالنا. ثم فسر الصراط بقوله : الصراط المستقيم هو : صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، أما الأول فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم ، لا يعدلون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة)) .[٢٥]

ولم تكن محاورات الحسن العسكري (ع) لأهل الفتن والجدل فحسب ، بل كان حواره مع منْ تأثر بتصورات المدارس الفلسفية والفكرية التي كان منبعها الفلسفة اليونانية فأقنعهم بالحجة والجدال الموضوعي كما في سؤال ((محمد بن صالح عن قول الله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [٢٦] فقال هل يمحو إلا ما كان وهل يثبت إلا ما لم يكن ؟ فقلت في نفسي : هذا خلاف ما يقوله هشام الفوطي : إنه لا يعلم الشيء حتى يكون ، فنظر إلي أبو محمد فقال : تعالى الله الجبار العالم بالشيء قبل كونه ، الخالق إذ لا مخلوق ، والرب إذ لا مربوب ، والقادر قبل المقدور عليه)) [٢٧].

فالإمام العسكري (ع) كان يسلك سبيل الحكمة في التصرف لغاية عظمى هي تثبيت النهج الرسالي أولاً ومقاومة التيارات الفكرية التي تحاول تقويض أسس المنهج الذي أرسى دعائمه النبي (ص) والأئمة من بعده ثانياً ؛ لعلمه بخطورة تلك التيارات على أصول الدين والعقيدة ، فقد ((تمكن الإمام العسكري (ع) من إنقاذ الأمة من حالة التعثر في مهاوي الضلال والتيه ، عن طريق مقاومة التيارات الفكرية المنحرفة عن الجادة وجسّ مواقع تأثيرها وتشخيصها وهي في بدايتها تقديراً لشدة مضاعفتها وتخطيطاً للقضاء عليها)) [٢٨] ولعل خير مصاديق ذلك هو تصدي الإمام العسكري (ع) لمشروع كتاب الكندي الذي صنفه حول متناقضات ادعاها في القرآن الكريم ، فكان أن طلب الإمام (ع) من أحد طلاب الكندي أن يسأله ، قائلا له: ((فصر إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة في ذلك فقل قد حضرتني مسألة أسألك عنها فإنه يستدعي ذلك منك فقل له إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها انك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعا لغير معانيه. فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن القى عليه هذه المسألة فقال له: أعد عليّ، فأعاد عليه فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملا في اللغة وسائغا في النظر فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك؟ فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة فعرّفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد فقال: الآن جئت به وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه)) .[٢٩]

مما تقدم يتبين أن مهمة الإمام الحسن العسكري (ع) كانت تتطلب منه التعامل بحكمة مع شخصيات المجتمع المختلفة التي يركن البعض منها إلى أسلوب الحجاج فيتخذه سبيلاً لدس جذور الريبة في أصول الدين، الأمر الذي أملى على الحسن العسكري (ع) أن يقتلع تلك الجذور من أصولها .

من الأساليب الأخرى التي اتبعها الإمام الحسن العسكري (ع) في تعامله مع المواقف التي أحاطت به كان أسلوب الكتمان والإشارة الذي دعت إليه ظروف الإرهاب السياسي والقمع تجاه خط الإمامة بل الخوف والحذر الشديد من تحركاته ومحاولة فصله عن أتباعه ومواليه ، وهو ما حدا بالإمام إلى انتهاج سبيل الكتمان لا لخوفه من أن يلقى حتفه بل لتأدية دوره الرسالي السامي المكلّف به والتمهيد لعصر الغيبة من بعده .

من ذلك ما روي عن محمد بن عبد العزيز البلخي، ((قال: أصبحتُ يوماً فجلستُ في شارع الغنم، فإذا بأبي محمد (عليه السلام) قد أقبل من منزله، يريدُ دار العامة، فقلتُ في نفسي: تُرى إن صحتُ أيها الناس هذا حجّة الله عليكم فاعرِفوهُ، يقتلوني؟ فلما دنا منِّي، أومأ بإصبعه السبابة على فيه: أنِ اسكُت، ورأيته تلك الليلة يقول: " إنما هو الكتمان أو القتل، فاتق الله على نفسك")). [٣٠]

مما تقدم يتبين أن أساليب حكمة الإمام الحسن العسكري تنوعت واختلفت تبعاً لتنوع المقامات والظروف ، وأنها كانت لغايات مستقبلية أساسها الحفاظ على بيضة الإسلام والنهج المحمدي من الفتن والزيغ والضلالة بما ينأى البدع والأفكار المغرضة التي حاولت حرف الدين عن مساره الصحيح .

المبحث الثالث : الحكمة والنظرة الاستشرافية لمنهجية الإمام في التمهيد للغيبة

اقتضت مشيئة الله عز وجل أن يكون الإمام الحسن العسكري (ع) حلقة الوصل بين سلسلة الرسالة المحمدية المتمثلة بالنبي (ص) والأئمة سلام الله عليهم من بعده وبين ختام هذه السلسلة المتمثلة بالإمام المهدي (ع) بل الممهد لها ، فقد خصه البارئ بأنه شرفه أن يكون الوالد لصاحب هذا الزمان ومنقذ البشرية من الظلم والطغيان ، محق الحق وداحض الباطل .

لذا لم تقتصر مهمة الإمام العسكري (ع) على مسؤولية زرع البذرة بل كان واجباً عليه الحفاظ عليها والتهيئة لنموها بما يمكّنها من الاستواء شجرة مثمرة أوكلت إليها أداء مهمة استثنائية مقدّرة بتقدير العزيز الحكيم ، لذا كان على المتكفل بهذا الأمر أن يتصف بصفات تؤهله لأداء واجبه وأن يتخذ الحكمة التي تستلزم النظر في عواقب الأمور، منهجية متفردة للتعامل مع الظروف التي تفرضها طبيعة الأحداث المعاصرة لهذه الولادة وما يحاوله مَنْ يمسك زمام الأمور في السلطة المتسلطة آنذاك والمعادية لتلك الولادة من القيام بوأدها في مهدها ، أو القضاء عليها قبل أن تولد .

لقد كانت النظرة الاستشرافية للحسن العسكري (ع) القائمة في أساسها على البعد المستقبلي خير معين لتكامل بناء صرح غيبة ابنه الإمام المهدي (ع) ، فنرى أن الإمام كان بارعاً وحكيماً في إدارة ما يضمن سلامة أساليب الولادة المباركة للإمام المهدي (ع) بعيداً عن أنظار السلطة الحاكمة ، لذا نجده يكثف الجهود لمرحلة الانتقال من عصر الحضور إلى الغيبة ؛ وذلك لخطورة المرحلة من النواحي كافة السياسية والاجتماعية والفكرية نتيجة التقلبات السياسية بتبدل الحكام والخلفاء الذين أساءوا التعامل مع أهل البيت (ع) ومن تبعهم في نهجهم الرسالي ، فضلاً عن رصد تحركات الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) وسعيهم الحثيث في البحث عن المنتظر الذي بشّر بقدومه النبي (ص) وبأنه القائم بالقسط وداحض الظلم والعدوان .

فكانت مهمة الإمام الحسن العسكري (ع) شاقة وعسيرة ؛ إذ كان عليه أن يتولى نوعين من الإعداد هما:

١- الإعداد الفكري والذهني

٢- الإعداد الروحي والنفسي

وقد تمثل الإعداد الفكري والذهني ، في إعداده لمواليه وأصحابه وشيعته بالثبات على الإيمان المتضمن فكرة الإيمان بالغيب والصبر وانتظار الفرج والتقوى التي هي قوام الإنسان المؤمن وذلك بربط قضية الإمامة بمسألة الإيمان المطلق بالربوبية والدين الحق وصراط العارف بضرورة التسليم لمشيئة الخالق في غيبة إمام الزمان ، وقد بيّن هذا الأمر حين سئل عن الخبر الذي روي عن آبائه (ع) من حجة الله على خلقه بعد النبي (ص) فأجاب بقوله:(("إنّ الأرض لا تخلو من حجة للّه على خلقه إلى يوم القيامة وأن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية" فقال (عليه السلام):إنّ هذا حقّ كما أنّ النهار حق، فقيل له: يا ابن رسول اللّه فمن الحجة والإمام بعدك؟ فقال: ابني محمّد هو الإمام والحجّة بعدي.من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية، أما إنّ له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون ويكذب فيها الوقّاتون، ثم يخرج فكأني أنظر الي الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة)) [٣١]

أما الإعداد الروحي والنفسي فقد تمثل بتهيئة الإمام الحسن العسكري (ع) أتباعه وشيعته للوضع المستقبلي بحكمة بالغة الغرض منها أن يألف الأتباع الوضع الجديد من عدم وجود إمام ظاهر للعيان يعودون إليه في أمورهم الدينية والدنيوية فلا يشكّل ذلك صدمة نفسية لهم ؛لأن الإمام (ع) أدرك بأن التهيئة النفسية للأتباع هي السبيل لبقاء خط الإمامة الرسالي وديمومة النهج المحمدي إلى يوم الدين ، فضلاً عن أن الشعور بعدم رؤية إمام لا يدرون متى سيظهر أو قائد يقودهم وينفس كربهم يحمل معه آثاراً نفسية سلبية إلا إذا توطنت النفوس على مبدأ أن الغيبة كالحضور عندها يكون الاطمئنان الروحي بوجود ملاذ آمن .لذا فقد هيأ الإمام الحسن العسكري (ع) الأذهان والأرواح لتقبّل فكرة الغيبة على وفق سياسة حكيمة تستند إلى أساس أن القاعدة الشعبية الصالحة هي الطريق لنجاح تلك الفكرة ، فعمد إلى تعويد أتباعه على نهجٍ ينبأ عن أسلوب حكيم ابتدأ به هو نفسه عبر أساليب متنوعة هي :

١-سياسة الاحتجاب : وكان ذلك عبر تقليل الارتباط بالأتباع ليكون ارتباطه بهم بشكل غير مباشر ومردّ هذا الأمر إلى حذره الشديد من عيون السلطة الظالمة التي كانت ترصد حركاته وسكناته مما حدا به إلى عدم الاختلاط المباشر والتكتم إلا عن الخواص من أتباعه ، فكان هذا تمهيداً للتعود على فكرة غيبة الإمام من بعده وهو خلفه المنتظر (ع) ، ((فقد اتخذ الإمام العسكري (ع) ومن قبله أبوه (ع) أسلوباً شبيهاً بمنهج الإمام المهدي (ع) في الاحتجاب عن الناس وإيكال أمر تبليغ الأحكام وقبض الحقوق المالية وإيصال التواقيع الصادرة عن الإمام إلى الوكلاء الذين يختارهم من خاصة أصحابه ، لغرض التهيئة الذهنية العامة)) لتقبّل فكرة الغيبة .[٣٢]

وقد روي أن ((أبا الحسن صاحب العسكر (ع) احتجب عن كثير من الشيعة إلا عن عدد يسير من خواصه ، فلما أفضى الأمر إلى أبي محمد (ع) كان يكلم شيعته الخواص وغيرهم من وراء الستر إلا في الأوقات التي يركب فيها إلى دار السلطان ، وإن ذلك إنما كان منه ومن أبيه قبله مقدمة لغيبة صاحب الزمان (ع) لتألف الشيعة ذلك ، ولا تنكر الغيبة ، وتجري العادة بالاحتجاب والاستتار)) .[٣٣]

٢-نظام الوكلاء:وهو من أساليب الإمام وحكمته في مواجهة المواقف والتهيئة للحدث المستقبلي من الغيبة للخلف من بعده ، فقد عيّن الإمام الحسن العسكري (ع) وكلاءً ونواباً ليكونوا وسطاء بينه وبين شيعته ليتعود الناس على هذا النظام ويألفوه فلا يكن غريباً عنهم في وقت الغيبة هذا من جهة، من جهة أخرى كان على الإمام التمويه لئلا يعرف بشخصه ومكانته بين عيون السلطة التي تراقب حركاته وتعامله ونشاطه السياسي والفكري والاجتماعي ، فضلاً عن أن نظام الوكلاء كان

معمولاً به قبل الإمام الحسن العسكري (ع) لارتباط الأئمة مع أتباعهم في الأمصار البعيدة ، فأضحى ضرورة تفرضها طبيعة العصر الذي عاش فيه الإمام الحسن العسكري (ع) من ضغوط وإرهاب .

٣- التوقيعات والمكاتبات : استند الإمام الحسن العسكري (ع) إلى نظام التوقيعات والمكاتبات وابتعد عن أسلوب المشافهة ، فكانت له مراسلات كثيرة مع من يسألونه على أمور دينهم من أحكام فقهية أو أمور دنياهم التي كان الإمام (ع) يجيب عنها بسرّية بالغة ، فقد روى أبو هاشم الجعفري، عن داود بن الأسود، وقائد حمام أبي محمد (عليه السلام)،((قال: دعاني سيدي أبو محمد، فدفع إليَّ خشبة، كأنها رجل باب مدورة طويلة، ملء الكفّ فقال: (صر بهذه الخشبة إلى العمري)، فمضيتُ، فلما صرت إلى بعض الطريق عرض لي سقاءُ معه بغل، فزاحمني البغل على الطريق، فناداني السقاء صح على البغل، فرفستُ الخشبة التي كانت معي، فضربتُ البغل، فانشقت، فنظرت إلى كسرها فإذا فيها كتبٌ، فبادرتُ سريعاً فرددت الخشبة إلى كمّي، فجعل السقاء يناديني ويشتمني، ويشتم صاحبي، فلما دنوت من الدار راجعاً استقبلني عيسى الخادم عند الباب، فقال: يقول لك مولاي: لِمَ ضربتَ البغل، وكسرتَ رجل الباب ، فقلت له: يا سيدي لم أعلم ما في رجل الباب، فقال: ولِمَ احتجتَ أن تعمل عملاً تحتاجُ أن تعتذر منه، إياك بعدها أن تعودَ إلى مثلها، وإذا سمعتَ لنا شاتماً فامض لسبيلك التي أمرتَ بها، وإياك أن تجاوب من يشتمنا، أو تعرِّفه من أنت، فإننا ببلد سوء، ومصر سوء،وامض في طريقك، فإن أخبارك وأحوالك ترد إلينا، فاعلم ذلك)) [٣٤]

٤_ إن اتخاذ مثل الأسلوب من لدن الإمام (ع) يدّل على أهمية التكتم وعدم إظهار الاكتراث وأن سبّ الشخص لكي لا يعرف ارتباطه بالإمام (ع) ومن ثم يبقى أمر التوقيعات خافياً عن أعين السلطة المنتشرة في أرجاء المكان ، وهو ما يعكس مدى حكمة الإمام الحسن العسكري (ع) في التمويه بما لا يثير الريبة والشك بأمره .

الخاتمة

بعد هذا التجوال في رحاب ملامح الحكمة للإمام الحسن العسكري لا بد من أمور نستنتجها عن أسلوب الإمام (ع) في الحكمة العملية وطريقة التعامل مع المواقف ، وهي كالآتي :

- إن الإمام العسكري (ع) يعدّ من رواد التنمية البشرية في العصر الحديث وهو امتداد لرائد التنمية البشرية الأول جده المصطفى (ص) الذي حاكى النفس البشرية وهذّب سلوكها بمعرفة أنماط الشخصية الإنسانية ، لذا فإن الإمام بأسلوبه الحواري أرشدنا لأسلوب من أساليب الحوار في القرآن الكريم وهو مخاطبة القلب واللب ليكون سبيلاً لمحاورة العقل .

- تنوعت أساليب الحكمة التي استعمالها الإمام الحسن العسكري (ع) في مواجهته للظروف والمواقف التي مرت به ، واختلفت معها استراتيجيات التعامل ببعديها الآني والمستقبلي بما يناسب سياسة السلطة الحاكمة التي تحاول قمع كل ما يناوئ سياستها ويعارضها .

- كان أسلوب الكتمان أبرز أساليب الإمام الحسن العسكري (ع) بروزاً ، وذلك لما أحاط به من تقييد ومراقبة للحركات والسكنات من عيون السلطة الحاكمة آنذاك ، فضلاً عن التمويه وعدم الإفصاح عن شخصيته وإخفاءها عن كثير من الناس .

- برع الإمام الحسن العسكري (ع) في تهيئة الأذهان والنفوس لفكرة الغيبة للإمام المهدي (ع) بالإعداد النظري والعملي ليضمن استمرار الخط الرسالي بعد أداء مهمته الاستثنائية فتمكن من قيادة القواعد الشعبية من الأتباع لمنهج أهل البيت (عليه السلام) بما تتوطن به النفوس والأذهان لفكرة قد لا تتقبّل إذا لم يتم التمهيد لها سابقاً .

هوامش البحث

١. علم الدلالة / بالمر ٤٠
٢. علم الدلالة / كلود جرمان وريمون لوبلان ١٨
٣. ينظر : تاج العروس ٣١/ ٥١٢ (حكم) باب الميم فصل الحاء
٤. معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ٢/ ٩١-٩٢
٥. المصباح المنير ١ / ٥٦
٦. ينظر: تاج العروس ٣١ / ٥١٠ - ٥٢٤
٧. تاج العروس / تحقيق : عبد العليم الطحاوي ٣١/ ٥١٠ (حكم)
٨. نفس المصدر ٣١ / ٥٢١
٩. التعريفات ٤١
١٠. المعجم الوسيط ١٩٠
١١. ورد ذكر لفظة الحكمة في السور الآتية : البقرة / ١٢٩ و ١٥١ و٢٣١ و٢٥١ و٢٦٩ مكررة و ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، النحل ، الإسراء ، لقمان ، الأحزاب ، ص، الزخرف ، القمر ، الجمعة
١٢. ذكر هذه الأوجه الدلالية ابن الجوزي في كتابه: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر/ دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي ، ينظر: ص ٢٦١-٢٦٢
١٣. تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٤٤ - ٤٤٥
١٤. تفسير القرآن العظيم ٦ / ٣٣٥
١٥. الجامع لإحكام القرآن ١٨ / ١٤٩

١٦.ينظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة / د.سعيد بن علي بن وهف القحطاني ١٥- ١٦
١٧.البقرة / ٢٦٩
١٨.النحل / ١٢٥
١٩.لقمان / ١٢
٢٠.ينظر : مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة ١٥
٢١.البقرة / ١٢٩
٢٢.آل عمران / ١٦٤
٢٣.الجمعة / ٢
٢٤.ينظر : مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة ١٧ - ١٨
٢٥.الأئمة الإثني عشر / الشيخ جعفر السبحاني ، دار الأضواء للطباعة والنشر ، ١٨٦
٢٦.الرعد / ٣٩
٢٧.كشف الغمة في معرفة الأئمة / الأربلي ٢١٥، وينظر: الأئمة الإثني عشر/ الشيخ جعفر السبحاني١٨٨ - ١٨٩
٢٨.الإمام الحسن العسكري سيرة وتاريخ / علي موسى الكعبي ١٠
٢٩.مناقب آل أبي طالب / ابن شهر آشوب ٣ / ٥٢٦
٣٠.إثبات الوصية ٢٦٦ ، كشف الغمة ٣ / ٢١٨ – ٢١٩
٣١.كمال الدين وتمام النعمة / الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ ه) ٤٠٩
٣٢.الإمام الحسن العسكري سيرة وتاريخ ١٤٨
٣٣.إثبات الوصية للإمام علي عليه السلام ٢٨٦
٣٤.بحار الأنوار/ المجلسي ٥٠ / ٢٨٣

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم**
- **الأئمة الإثني عشر/** الشيخ جعفر السبحاني ، مكتبة الشيعة الالكترونية على الرابط الالكتروني http://shiaonlinelibrary.com
- **إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام** / أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ ه) ، دار الأضواء : بيروت .
- **الإمام الحسن العسكري سيرة وتاريخ** / علي موسى الكعبي ، سلسلة المعارف الإسلامية ٣٦ .
- **بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار** / محمد باقر المجلسي / دار إحياء التراث العربي: بيروت
- **تاج العروس من جواهر القاموس** / السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق : عبد العليم الطحاوي ، سلسلة التراث العربي – الكويت ، ١٤٢١ه – ٢٠٠٠ م .
- **التعريفات** / السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، المطبعة الخيرية : مصر ، ط١ / ١٣٠٦ه .
- **تفسير القرآن العظيم** / إسماعيل بن عمر بن كثير القريشي (ت ٧٧٤ه) ، تحقيق : سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة – السعودية ، ط٢ / ١٤٢٠- ١٩٩٩ م .
- **الجامع لأحكام القرآن** / أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي (ت ٦٧١ه) ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط ١/ ١٤٢٧ه ٢٠٠٦ م .
- **علم الدلالة** / ف. بالمر ، ترجمة : مجيد عبد الحليم الماشطة . ١٩٨٢ .
- **علم الدلالة** / كلود جرمان ، ريمون لوبلان ، ترجمة : د. نور الهدى لوشن ، دار الفاضل دمشق، ١٩٩٤ .
- **كشف الغمة في معرفة الأئمة** / أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ه)، دار الأضواء : بيروت
- **كمال الدين وتمام النعمة** / الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ه) ، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ١٤٠٥ ه .
- **المصباح المنير**/ احمد بن محمد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠ ه) ، مكتبة لبنان
- **معجم مقاييس اللغة** / احمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ه) ،تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر العربي/ ١٩٧٩ .
- **المعجم الوسيط** / مجمع اللغة العربية – مصر ، مكتبة الشروق الدولية ، ط ٤ / ٢٠٠٤م.
- **مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة** / د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، سلسلة الرسائل الدعوية – السعودية .
- **مناقب آل أبي طالب** / ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ه) ، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف ١٣٧٦ه - ١٩٥٦ م
- **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر** / أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ه) ، دراسة وتحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة ، ط ٣/ ١٩٩٧ م .